والمفكرون يتبوأون أرفع مكانة وتتدفق عليهم المنح والهبات الوفيرة لكي يتفتح نبوغهم ويستطيعون العمل في دعة وسكينة ؛ وكان الخلفاء والسلاطين يأخذون بأعظم قسط في تشجيع الحركات الأدبية ، وكان من بواعث الفخر أن يكون القصر أو العاصمة ملاذاً لأكبر عدد من الكتاب والشعراء ؛ وكان من زينة العصر والدولة دائماً أن تزدهر الحركات الفكرية في ظل الرعاية الرسمية ؛ وهاهو ذا الأزهر لم يعاونه على الحياة حتى عصرنا سوى التفات السلاطين اليه وتعهد علمائه وطلبته بالبذل والعون . ولم يكن الملق ، دائماً ، كما هو الشأن في أيامنا ثمن هذه الرعاية . ذلك أن رعاية العلم والعلماء في تلك العصور كانت تعتبر من واجبات الدولة القوية المستنيرة ، وكان العلماء يعملون في ظل هذه الرعاية مستقلين في الغالب ، ولم يكن يطلب اليهم دائماً أن يكونوا أذناباً أو دعاة للأمر أو الحكومات التي تشملهم برعاية يعتبرونها حقاً عاماً لهم يجب تأديته اليهم.

ومن العبث أن ندعى أن الحكومات والهيئات الرسمية المصرية المختلفة قد استطاعت أن تؤدى هذا الواجب العام أو بعضه نحو رعاية الحركات الفكرية في عصرنا . والحركة الفكرية لم تفد شيئاً من تلك الدعايات الواسعة التي تذاع حولها ، وتلك المنشآت العقيمة التي تقام باسمها ، والتي يراد أن تكون هياكل فقط تمجد العصر وتنسب اليه ؛ وما نخشاه هو أن الجهات الرسمية ما زالت بعيدة عن تقدير هذا الواجب ، بعيدة عن تأديته . إن النبوغ في مصر ما زال يعني الفقر والبؤس ، إذا لم يوفق من تلقاء نفسه الى الخروج من غمرة الظلمات والصعاب التي ينشأ فيها ؛ بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك ، هو أن النبوغ يعتبر في مصر أحياناً خطراً يخشى منه ويجب اتقاؤه ؛ وعندئذ يشترى لا ليعضد ويزدهر ، بل لكي يسكت ويقبر . أما أغنياؤنا فلن نطمع أن نجد بينهم واحداً يقدر واجباً لا تقدره الحكومة ؛ ومن المحال أن يروا مثلهم الأعلى في رجال كالفرد نوبل يرون ذخر الانسانية في صون التفكير الانساني ، والارتفاع به الى ذرى التقدير والاجلال ؟

محمد عبد الله عنان
المحامي

الشيخ الخالدي

للدكتور عبد الوهاب عزام

لقيت في الآستانة منذ خمس سنين شيخاً جليلاً ينقب عن الكتب ، ويتحدث عن نوادرها ، وعرفت أنه الشيخ خليل الخالدي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية في القدس

ثم شرفت بلقائه في مصر مرات . كان كلما قدم القاهرة تفضل فزارني في الجامعة . تقابلنا مرة فتكلم عن الكتب والمؤلفين كلام خبير بحاثة . فحرصت على لقائه والافادة منه فراعني علم لا ينفد ، وحفظ لا يخطئ

يبدأ حديثه عن الكتب ، فيذكر أنه رأى كتاب كذا في مكتبة كذا ، ويصف النسخة وما عليها من سماع العلماء ، ثم يتكلم عن قيمة الكتاب ومكانته بين أشباهه ، ويذكر المؤلف فيبين عن تاريخه ومكانته من العلم ، ودرجته بين العلماء ، وهلم جرا ، يفضي من حديث إلى حديث ، والسامع فرح بما يسمع ، معجب متعجب . وقد زار مكاتب الآستانة والأناطول وفينا والشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس ، ونقب فيها عن نفائس الكتب ، فأحاط بما لم يحط به سواه . والشيخ حفظه الله منقطع النظير في هذا الموضوع ما رأيت ولا سمعت بمثله

وهو من أسرة الخالدي إحدى أسر الشام العظيمة ، تنتسب إلى سيدنا خالد بن الوليد . وهي معروفة في التاريخ بأسرة الديري ، وفيها العلماء والقضاة في الشام ومصر منذ خمسمائة وخمسين سنة

والشيخ نزيل القاهرة الآن . وقد أسعدني الجد بلقائه مرات في شعبان ورمضان هذا . وأرجو أن أسعد أنا وأصدقائي بحديثه مرات أخرى قبل رجوعه الى فلسطين

وقد حرصت أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشعره بذلك ، فلما اجتمعنا في حلوان ليلة السبت ثامن رمضان ، سأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه ، فدونت بعض ما قاله إجمالاً ، ثم عدت إليه بعد انفضاض المجلس ففصلته على قدر ما وعيت . وإني أقدم للقارئ هنا ما حفظته عن الشيخ العلامة في ذلك المجلس :

سأل أحد الحاضرين عن المدارس ذات المكانة في التاريخ الإسلامي فقال: المدارس النظامية كانت في بغداد والموصل، وأصفهان ونيسابور، ومرو وهراة، وكان في نيسابور ستات المدارس: منها المدرسة البيهقية. ومدرسة ضياء الدين في سمرقند، وكان يقيم بها صاحب الهداية وشمس الدين الكردلي صاحب مناقب أبي حنيفة، ومدرسة الأمير مسعود في بخارى، ومدرسة قطلغ تيمور في خورزام، وهذه البلاد التي ذكرت كانت من مراكز العلم، ومثلها بخارى وبلخ وفرغانة وجرجان، وكان ببخارى من معاهد العلم مسجد كوكلتاش ومسجد كلام، ومن

الشيخ خليل الخالدي في قصر بني عباد بأشبيلية سنة ١٣٥١ هـ

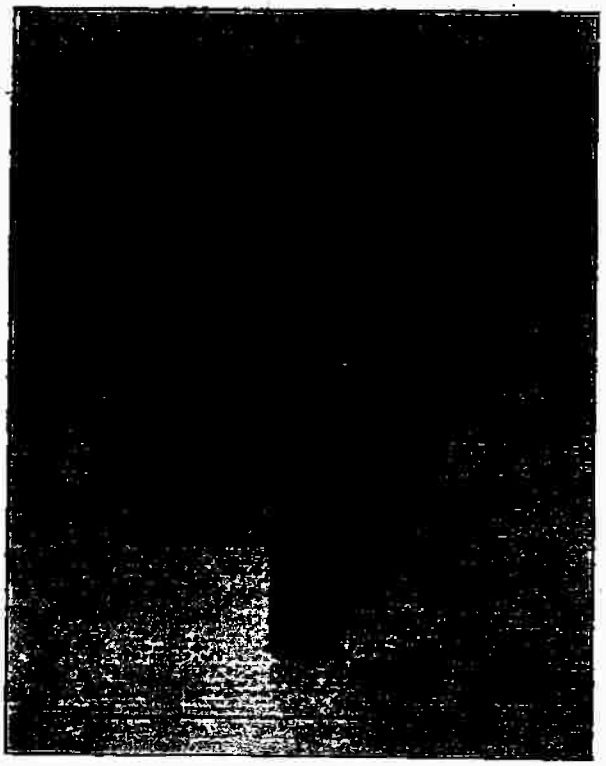

رجال مرو: القفّال الكبير والقفال الصغير، ومشايخ امام الحرمين والبغوي، والسمعاني، وابن حنبل. وكان بدمشق مدارس كثيرة، منها العمرية التي أنشأها أبو عمر بن قدامة. وهو أخو الموفّق أخو قدامة صاحب كتاب المغني في مذهب الحنابلة، وهو اثنا عشر مجلداً. ومنها المدرسة الضيائية، وكان بها خطوط المحدثين كلهم. وهي منسوبة الى ضياء الدين المقدسي ابن أخت أبي عمر بن قدامة. وقد تخرج فيها ابن تيمية والذهبي، ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية، وهي دار التحف العربي الآن. وقد درّس بها النووي وابن الصلاح وأبو شامة، والمدرسة العادلية، وقد درس بها ابن مالك وابن خلكان، والمدرسة الرواحية التي تخرج فيها النووي، وصارت الآن من دور آل الغزي. والمدرسة التي درس بها ابن القيّم، وهي بقرب بيت العظم. وكانت بيوت العلم في الشام بني قدامة، وبني تيمية، وبني عساكر، وبني عبد الهادي، وهؤلاء من مشايخ الذهبي

ثم انتقل الحديث الى الفخر الرازي، فقال في أثناء كلامه: إن الرازي من بني أبي بكر الصديق، فتعجب الحاضرون، فقال: ومن ذرية الصديق أيضاً جلال الدين الداوني، وعضد الدين صاحب العقائد، وأبو اسحق الشيرازي، والفيروز آبادي، قلتُ وجلال الدين الرومي. قال: نعم وجلال الدين، وأين جلال الدين من هؤلاء، قلت: لكل وجهة، ثم سئل الشيخ عن بني عمر بن الخطاب في العلماء فقال: منهم السهروردىّون من المتصوفة، ومنهم القبّتري. وكان في بخارى جماعة منهم. وكان تيمورلنك يجلّهم كل الأجلال، قال: وصدر الشريعة من بني عبادة ابن الصامت، وليس كل من نشأ في بلاد الفرس فارسياً، فأبو داوود السجستاني، والترمذي صاحب الشمائل، والترمذي صاحب السنن، وابن عبد البرّ كل هؤلاء من العرب، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري من بني ضبة، ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح، وأبو القاسم صاحب الرسالة القشيرية من بني قشير، والمازري، وابن يونس الصقلي، وعبد الحق الصقلي الذي غلب إمام الحرمين في المناظرة، من بني تميم، والقاضي عياض من يحصب

ثم ساقه الحديث الى القطب الشيرازي العلاّمة المطلق، وفخر الإسلام البزدوي وصدر الشريعة فأفاض في الحديث. وقال: لفخر الإسلام البزدوي كتاب في الأصول منقطع النظير، حدّث شمس الدين الأصفهاني شارح الطوالع أنه دخل على أستاذه القطب الشيرازي فرأى عنده كراسات على وسادة، فقال ما هذه؟ قال: إني منذ سنة كنت أقرأ كتاب البزدوي، وأنقل عنه وما أنهيته. ولصدر الشريعة كتاب تعديل العلوم في المنطق والحكمة والكلام والتصوف والأخلاق. رأيت منه نسخاً كثيرة. وله كتاب التنقيح وشرحه التوضيح

سأل سائل لماذا قلّ أمثال هؤلاء العلماء بين المسلمين اليوم ؟ قال لذلك أسباب : منها أن أسلافنا كانوا يطلبون العلم للعلم لا يبغون من ورائه شهادة ولا منصباً ؛ كان كل منهم يتخذ عملاً يعيش منه ثم يحصل العلم عن جهاً بذته . ولم تكن أساليب التعليم صناعية آلية كنظام المدارس في الوقت الحاضر ؛ ومن الأسباب انقطاع الرحلة ، كان سلفنا يشدون الرحال في طلب العلم لا يفترون ، فيلقى بعضهم بعضاً ، ويأخذ بعضهم عن بعض . الخ . انظر إلى قضاة السلف كيف كانوا يفرّون من القضاء إشفاقاً على دينهم ؟ . هذا أبو علي الصدفي أحد قضاة الأندلس ذبح الذبائح وحج شكراً لله على خلاصه من القضاء . ومن القضاة الأباة عظماء النفس ، أهل التقوى أبو بكر بن السليم القاضي الأندلسي ، وله رأي في الفقه معروف : «أن الانسان إذا اشترى بيتاً فوجد به بقّاً فله خيار العيب» ومنهم ابن زرب القاضي ، وكان في عهد المنصور بن أبي عامر . وحسبك بقاض يتعاظم على مثل المنصور . وله كتاب الخصال الكبير والخصال الصغير في مذهب مالك ، رأيتهما في مجريط . وقد قيل إن من قرأ الخصال استغنى به عن الكتب الأخرى ، وكان الأندلسيون ذوي همة عظيمة في تحصيل العلم ؛ كان طلابهم يبدأون بحفظ التسهيل لابن مالك ، ومختصري ابن الحاجب في الفقه والأصول ، هذا عند المتأخرين . وأما من قبلهم فكانوا يحفظون الموطأ ، ومن قبل هؤلاء كانوا يحفظون تهذيب المدونة ، وسلفهم كانوا يحفظون المدونة ، وكان ابن بشكوال يحفظها كلها ، وكان الرازي يحفظ كتاب الشامل لأمام الحرمين ، وهو مجلدان في علم الكلام . وأرى أن تفوق الأندلسيين كان من عنايتهم بأمهات الكتب . كانوا يقرأون في النحو كتاب سيبويه ، وأين من كتاب سيبويه كتاب الأشموني وحاشية الصبان ؟ وقد رأيت في مكتبة الأسكوريال خط أبي علي الشلوبين على كتاب سيبويه يعدّ الكتب التي قرأها في النحو وكلها من الأمهات . ورأيت في مكتبة كوبريلي بالآستانة اجازة قاضيخان كتبها بخطه على السير الكبير للسرخسي وعدد الكتب التي درسها في الفقه . وهي كتب تضمن لقارئها التفقه . أنظر ! أهل الأزهر يقرأون في الأصول جمع الجوامع ، وليس هو من كتب الأصول القيّمة . — قال بعض الحاضرين : قرأوا كتاب الآمدي في عهد الشيخ المراغي ثم أبطلوه ، فقال كتاب الآمدي جيد ، وللآمدي كتابان : إحكام الأحكام ، وأبكار الأفكار . وكتاب ابن الحاجب في الأصول مأخوذ من منتهى السول والأمل للأرموي ، وهذا مأخوذ من كتاب الآمدي ، والآمدي أخذ من الأدلة القواطع للسمعاني ، وهذا مأخوذ من كتاب الباقلاني ؛ فهذا الأصل الذي لم يؤخذ من غيره . ثم تكلم عن أصول الحنفية وعلمائهم وكتبهم وطريقتهم ، ورجع الى الباقلاني فقال : وكان الباقلاني آية من آيات الله . وقد روى أبو الوليد الباجي أنه كان يسير مع الدار قطني — والدارقطني من كبار المحدثين ، في درجة الترمذي وابن ماجه — فلقيا رجلاً ، فأعظمه الدارقطني غاية الأعظام وقبّله ، فقال أبو الوليد : من هذا ؟ قال : سيف أهل السنة أبو بكر بن الطيب ، يعني الباقلاني ، وقد رثاه بعض الناس فقال :

انظر الى جبل تمشى الرجال به ... وانظر الى القبر ما يحوي من الصلف
وانظر الى سارم الاسلام منغمداً ... وانظر الى درة الاسلام في الصدف

وكان الباقلاني يناظر ابن المعلم فيفحمه . وكان ابن المعلم يوماً في أصحابه فأقبل الباقلاني ، فقال ابن المعلم : جاءكم الشيطان ، فسمعها الباقلاني فتلا قوله تعالى : ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّاً . وتناظرا مرة ، فلما أفحم ابن المعلم أخرج قبضة من الباقلي ورماها في وجه الباقلاني ، يعني بذلك أنه ابن بائع باقلي . فأخرج الباقلاني درّة من ثيابه ورمى بها ابن المعلم يعني أنه ابن معلم صبيان ، فتعجب وقال : ما أخبرت أحداً أني سأرميه بالباقلي ، فكيف أعدّ لي هذه الدرة ؟ — وعقائد الدواني مأخوذة من عيون المسائل ، وهذه مأخوذة من رءوس المسائل ، وكلاهما للجرجاني ، ورءوس المسائل مأخوذة من جواهر الكلام لعضد الدين صاحب المواقف ، والجواهر من المواقف ، والمواقف مأخوذة من أبكار الأفكار للآمدي ، وهذه عن الباقلاني ، وهذا كما نرى في فقه المالكية : كتاب أقرب المسالك للشيخ الدردير مأخوذ من كتاب خليل ، وهذا عن كتاب ابن الحاجب عن تهذيب البرادعي عن المدونة . وقد رأيت نسخة من المدونة في مكتبة القرويين في فاس بخط عبد الملك بن مسرّة شيخ ابن رشد ، وهي في ثمانين مجلداً صغيراً ، وكُتب في نهايتها :

بالله يا قارىء استغفر لمن كتبا ... فقد كفتك يداه النسخ والتعبا
كتبه عبد الملك بن مسرة اليحصبي.

وقد ذكر ابن مسرة ابن فرحون في كتاب الديباج وهو من